

مَعَالِمُ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ

أيها الإخوة :

لقد فرض الله علينا صيام شهر رمضان تكريماً لنا وتشريفاً ، وأنعم به علينا ليزودنا بخير زاد إلى دار المعاد : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ .. ﴿ الآيات .
فالحمد لله على فضله وإحسانه وجوده ، وهو الرؤوف الرحيم .

إخواني :

لقد كاد الشهر أن ينتهى وأوشك على الانقضاء ، وكاد القلب أن ينفطر من الاستيحاء بانقضائه فالحمد لله على انقضائه بقضائه . وهو العليم الحكيم اللطيف الخبير أعاده الله علينا بخشيته وتقواه ، ونوره وهدايه ؛ فإنه على كل شئ قدير ، وبالإجابة جدير . فطوبى لمن أنصف ربّه فأقر له بالفضل منه وإليه . وبالنعمة ، والإحسان ، والجود والعطاء .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فالحمد لله والشكر له . فطوبى لمن أنصف ربّه فأقر له بالجهل وفي علمه ، والآفات في عمله ، والعيوب في نفسه ، والتفريط في حقه ، والظلم في معاملته ، فإن أخذه بذنوبه رأى عدله ، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله . وإن عمل حسنة رآها من منته وتوفيقه . وإن عمل سيئة رآها من إمساك عصمته عنه ونخللانه وذلك من عدله فيه فيرى في ذلك فقره إلى ربّه ، وظلمه في نفسه . فإن غفر له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه .

فاعلم أخى وسيدى أن نكتة المسألة وسرّها أنه لا يرى المؤمن ربّه إلا محسناً ، ولا يرى نفسه إلا مسيئاً أو مفرطاً أو مقصراً . فيرى كل ما يسره من فضل ربّه عليه وإحسانه إليه ، وكل ما يسوءه من ذنوبه وعدل الله فيه . ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ صدق الله العظيم : فالحمد لله والشكر له .

فاعلم أخى وسيدى أن قبول المحل (القلب) لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده . فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه

لاعتقاد الحق ومحبته موضع كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل . وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا أفرغها من ضدها . فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته ، والشوق إليه والأنس به لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره . فانظر أخى وتدبر . وقل ربى زدنى علماً . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فاعلم أخى وسيدى أن معرفة الله سبحانه وتعالى نوعان : معرفة إقرار وهى التى اشترك فيها الناس البر والفاجر ، والمطيع والعاصى ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ والثانى معرفة توجب الحياء منه والمحبة له ، وتعلق القلب به ، والشوق إلى لقائه ، وخشيته ، والإنابة إليه ، والأنس به والفرار من الخلق إليه . والمراد بالخلق كل ما سوى الله . قال تعالى فى وصف هؤلاء ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَلَيْسَ إِلَهُكَ رَبُّهُمْ رَاجِعُونَ ﴾ أولئك يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿ وقوله : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ وهذه هى المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم ، وتفاوتهم فيها لا يخصها إلا الذى عرفهم بنفسه ، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم . وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها وقد قال أعرف الخلق به رسول الله ﷺ : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده ما شاء له من المحامد .

ولهذه المعرفة بابان واسعان . باب التفكير والتأمل فى آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن الله ورسوله قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ والباب الثانى : التفكير فى آياته المشهودة ، وتأمل حكمته فيها ، وقدرته ولطفه وإحسانه ، وعدله وقيامه

بالقسط على خلقه . وجماع ذلك الفقه فى معانى أسمائه الحسنى وجلالها وكبريائها وتفرد به بذلك ، وتعلقها بالخلق والأمر . فىكون فقيها فى أسمائه وصفاته ، فقيها فى الحكم الدينى الشرعى والحكم الكونى القدرى . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

فاعلم أخى وسيدى أن رباً ذا إرادة أمر عبداً ذا إرادة . فإن وفقه وأراد من نفسه أن يعينه ربه ويلهمه فعل ما أمره به . وإن خذله وخلاه وإرادته ونفسه . وهو فى هذه الحيثية لا يختار إلا ما تهواه نفسه وطبعه . فهو من حيث هو إنسان لا يريد إلا ذلك . ولذلك ذمه الله فى كتابه من هذه الحيثية ، ولم يمدحه إلا بأمر زائد على تلك الحيثية . وهو كونه مسلماً ومؤمناً وصابراً ومحسناً وشكوراً وتقياً وبراً ونحو ذلك . وهذا أمر زائد على مجرد كونه إنساناً وإرادته صالحة . ولكن لا يكفى مجرد صلاحيتها إن لم تؤيد بقدر زائد على ذلك وهو التوفيق كما أنه لا يكفى فى الرؤية مجرد صلاحية العين للإدراك إن لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها . فانظر أخى وتدبر . وقل رضى زدنى علماً . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فاعلم أخى وسيدى : أن الناس مذ خلقوا لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حط رحالهم إلا فى الجنة أو النار والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار . ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة .. إنما ذلك بعد انتهاء السفر . ومن المعلوم أن كل وطأة قدم ، وكل أنة من أنات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف . وقد ثبت أنه مسافر على الحال التى يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصّل . وإذا نزل أو نام فعلى قدم الاستعداد للسفر .

فاعلم أخى وسيدى : أن الطريق إلى الله وعمر شاق مخفوف بالأشواق . فالكيس من أسلم نفسه ، وفوض أمره إليه مستعيناً به من حيث لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه . وهو اللطيف الخبير الرؤوف الرحيم . فالحمد لله والشكر له .

فاعلم أخى وسيدى : أن طالب العودة إلى الله والدار الآخرة يحتاج أن يكون مقدماً حاكماً على وهمه غير مقهور تحت سلطان تخيله زاهداً فى كل ما سوى مطلوبه . كثير السكون . دائم الفكر غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته . لا تستغزه المعارضات ، ولا تشغله

الخواطر العابرة . سعاره الصبر ، وراحته التعب . محباً لمكارم الأخلاق . حافظاً لوقته ، لا يخالط الناس إلا على حذر . كأنظائر الذي يلتقط الحب بينهم ، قائماً على نفسه بالرغبة والرغبة . والله الموفق للصواب .

واعلم أخى وسيدى : أن الله على العبد فى كل عضو من أعضائه أمراً وأنه عليه فيه نهي ، وله فيه نعمة ، وله به منفعة ، فإن قام الله فى ذلك العضو بأمره ، واجتنب فيه نهييه فقد أدى شكر نعمته عليه ، وسعى فى تكميل انتفاعه به ، ولذته فيه ، وإن عطل أمر الله ونهييه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو . وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته . وله عليه فى كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه ، وتقربه منه ، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه . وإن شغله بهوى نفسه أو راحة وبطالة تأخر ، فالعبد لا يزال فى تقدم أو تأخر . ولا وقوف فى الطريق البتة قال تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ صدق الله العظيم .

فاعلم أخى وسيدى : أن الطلب لقاح الإيمان ، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمر العمل الصالح . وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه . فإذا اجتمعا أثمر إجابة الدعاء . والخشية لقاح المحبة فإذا اجتمعا أثمر امتثال الأوامر واجتناب النواهي .

فاعلم أخى وسيدى : أن تخلف الكمالات إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة قال تعالى : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ .

فاعلم أخى وسيدى : أن الناس حينما أرسل الله إليهم الرسل أصبحوا بين أمرين : إما أن يقول أحدهم آمنا . وإما أن لا يقول آمنا بل يستمر على عمل السيئات . فمن قال آمنا . امتحنه الله وابتلاه ، وألبسه ثوب الابتلاء والاختبار ليعين الصادق من الكاذب . ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يسبق الرب ، فإن أحدا لن يعجز الله تعالى : هذه سنته ولن تجد لسنة الله تبديلاً قال تعالى : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

وختاماً أقول لأخى وسيدى : إن الإيمان عبارة عن حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً . والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقاً ، والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به ظاهراً وباطناً ، والدعوة إليه بحسب الإمكان . ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وكال الإيمان فى الحب فى الله . والبغض فى الله ، والعطاء لله ، والمنع لله . وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده ، والطريق إليه تجريد ومتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً ، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله ، وبالله التوفيق .

* * * *